التعليم (المدرسة) في العراق القديم .

قدمت حضارة بلاد الرافدين أهم المنجزات الحضارية ونشرت بذورها إلى مداها الرحب ، إذ أثرت في صياغة التأريخ الإنساني تأثيرا واضحا ، وتركت بصمات إنسانية وحضارية واضحة في حضارات العالم القديم . وتجلت معالم هذه الحضارة بإنجازاتها الحضارية ومعالمها الإنسانية ، بفضل تدوين لغتها وأدبها وتراثها ، ووضعوا حدا فاصلاً بين عصور ما قبل التأريخ والعصور التاريخية (الكتابة) ، وأخذت تتطور في هذا المجال وبرزت مؤسسات تعليمية لدراسة فن الكتابة وانعكست هذه التطورات إيجابياً على معالم التدوين للنصوص المختلفة ابتداء بنصوص المعبد (الدينية ، الاقتصادية والاجتماعية) وامتدت إلى مؤسسات أخرى .

اختلفت مراحل التطور ما بين مرحلة وأخرى ربما بسب التطورات السياسية أو الاختلاف الفكري سواء باستخدام اللغة أو الخط ، ولكن الإشارات الموجودة في النصوص المكتشفة في شروباك (تل فارة) ونصوص أبو الصلابيخ (أريش) القديمة ، كيش وماري ، تدل على أن هناك دور تعليم موحدة أو ربما مركزية في مناهجها أو طرق التعليم ، وتوضح السلسلة المكتشفة من القوائم الخاصة بحفظ العلامات البسيطة وقوائم لأسماء الآلهة المعروفة باسم (أن : أنوم Anum : AN) وسلسلة (أورا : خوبولوم) التعليمية ، كما وأن هناك قوائم خاصة بالعلامات ، ويبدوا أنها على ثلاثة أنواع في العهد البابلي القديم الأول ، إذ يحوي النوع الأول على علامات صوتية جمعت حسب الصوت المنفرد مثل (u , a , i) والنوع الثاني ينضم العلامات حسب أشكالها بمجاميع كبيرة وصغيرة ، أما النوع الثالث فيطلق علية أسم ((Ea) بعد علامته الأولى ، وتؤكد النصوص المسمارية على أن النوعين الأول والثاني أستخدم خارج مدينة نفر لغرض ثقافة أولية ، فيما أستخدم النوع الأخير في نفس المدينة (نفر) ولكن بمرور الزمن أخذت هذه القوائم تتطور بل ظهرت قوائم أخرى تعرف لدى الباحثين باسم (Šir , Dir) ، والتي تمثل سلسلة متطورة من التعليم ٠ كما وتشير النصوص المسمارية المكتشفة ، على أن كتبة سبار أستخدموا طريقة لتبسيط بعض هذه القوائم والتي عرفت بـ (SA) والتي انتشرت في مراكز المدن العراقية القديمة ٠

وأحتضن المعبد التعليم منذ البداية ولكن بدأت مؤسسات خاصة تعرف باللغة السومرية (E-DUB-BA) وباللغة الاكدية (Ţuppi_bit) (بيت الألواح) أي (المدرسة) ٠ فالدلائل الأثرية المكتشفة ، الخاصة بالمدرسة ، تعود إلى مرحلة مبكرة أي بحدود (٢٥٠٠ ق م) وهذا ما اكدته النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة شرباك والتي تحوي على نصوص مدرسية معدة لغرض استنساخها من جانب الطلبة ، كما وتكشف التنقيبات الأثرية على بعض الأبنية الخاصة بالمدرسة في مدن بلاد الرافدين (نفر ، شروباك ، سبار ، أشور وتل الدير) ، ولاسيما تلك الآثار المكتشفة في مدينة ماري (تل الحريري) على نهر الفرات ، إذ تتألف من غرفتين تحتوي كل غرفة على عدد من المصاطب لجلوس الطلبة وأدوات مدرسية وأحواض مياه كانت تستخدم لتحضير الرقم الطينية ، كما انعكس الفكر العلمي لسكان بلاد الرافدين على وصف المدرسة بالأحجية أو اللغز الاتي :

(ما هو :) ٠

بيت كالسماء له محراث
يغطى بالثياب كأنه أبريق من نحاس
والذي يقف على قاعدة كأنه إوزه ٠
يدخل فيه من عيناه مسدودتان
ويخرج منه من عيناه مفتحان !
الحل / المدرسة ٠

البداية الأولى ظهرت فكرت الكاتب الذي يطلق علية أسم (تُبشَر Tupšar) والمأخوذة من الكلمة (سنكو SNGU) وتعني (الكاهن) ، ويفسر لنا هذا الاسم ، أن الكاهن هو الذي تبنى فكرة التعليم في البدايات الأولى ، ولكن بعد أن تطورت مراحل التعليم وزادت الحاجة إلى التدوين بشكل أكبر لممتلكات المعبد والقصر ، ظهرت طبقة جديدة عرفت (بطبقة الكتبة) ثم ظهرت بعدها المؤسسة التعليمية (المدرسة) وضمت أعداد من الكتبة اختلفت وظائفهم وأسمائهم ، إضافة إلى أن الكتبة أخذوا وظائفهم في المعبد والقصر والمدرسة ، وتدرجوا في وظائفهم ، كما كان هناك تدرج كهنوتي ، فبعض النصوص لم تكن تعرض على البسطاء من

الكهنة أو المبتدئين ٠ كما هو الحال في لوح هيكل مردوخ ، أما النصوص المقدسة الأخرى فيسمح للكتبة استنساخها وتعليمها للمبتدئين٠

بدأ التعليم في المدرسة باللغة السومرية وأستمر هذا الوضع حتى بعد سقوط أور الثالثة (٢١١٢ -٢٠٠٤ ق- م) ولكن بسبب تغيير الأوضاع السياسية وفرض الأموريون نفوذهم على البلاد تحولت اللغة الرسمية للبلاد وأصبحت اللغة الأمورية هي اللغة الرسمية وأخذ التعليم بهذه اللغة ولكن لم تهمل اللغة السومرية ، لذلك كان من الصعوبات التي يواجهها المتعلم هو أن يتعلم اللغتين السومرية والاكدية ، لذلك يشير النص القديم ((أن الناسخ الذي لا يجيد اللغة السومرية ، فأي ناسخ هو ؟)) فمن هذا النص نرى تأكيد واضح على تعليم اللغة السومرية لذلك أخذ التعليم في العصر البابلي القديم باللغة البابلية في المراحل الأولى ، ثم يتم تعليم اللغة السومرية في مراحل متقدمة من التعليم ٠

ثم أخذت المدرسة تظم أعداد من الطلبة ، إذ يسمى الطالب(دُمُ-اِ- دُب- بَ dumu- E-dub-ba) (أبن بيت الألواح) ، ويمثلون كتبة تحت التمرين ، إذ يجلسون على المصاطب ويأخذون من أستاذهم لوح دون عليه جملة لغرض التعليم ، فينسخونها في وقت معا ، وتكشف الأدلة الأثرية على وجود أحواض ماء صغيرة قابلة للنقل موضوعة بين المصاطب، ويشير وجود الماء والطين إلى أن الطالب يتعلم كيف يصنع لنفسه رقيم الطين وحسب الطلب٠ ويدل على ذلك هذا النص ((إذا حاولت عمل لوح طيني للكتابة فأنك لا تقدر على تنعيم(؟) الطين (؟)٠

أما حياة الطالب في المدرسة ، فيكشف لنا نص من لوح مسماري عن هذه الحياة ٠ بعنوان ((أبن المدرسة ، التلميذ))

أين كنت تذهب في أيام صباحك (حرفيا :أيامك الأولى)؟

يجيب الطالب قائلا: أذهب إلى المدرسة ٠

أقرأ رقيمي الجديد (الجديد) ، أكتبة وأنهية٠٠٠٠

وعند الانصراف من المدرسة ، أذهب إلى البيت ، أدخل بيتي ، كان والدي جالسا هناك ،٠٠٠٠٠ أقرأ علية رقيمي ، فيسر (لذلك) ٠٠

يوضح هذا النص اهتمام البيت (الأب) وحرصه على تعليم أبنه فن الكتابة منذ أيامه الأولى ٠وأن المدرسة العراقية القديمة لم تخل من المنافسة بين الطلبة ، وتكشف لنا النصوص المسمارية عن حوار دار بين تلميذين حاول أحدهم السخرية من الثاني ، أذ كانا في مراحل متقدمة من التعليم (أسم الأول – أينكياسنى) (والثاني جيرينشاج) إذ كان الأخير ربما وصل إلى منزلة ((الأخ الكبير)) (مساعد معلم في المدرسة)٠و كان كل واحد منها يتبجح بفضائله ومعرفته ، ويسخر من فضائل خصمه وبألفاظ ساخرة وشتائم مهينة ، اذ ذكرالنص (٠٠٠ أنت أبله مغفل، حشرة مدرسة مؤذية ، أنت أمي ، أنت سومري جهول، يدك فضيعة، أنها لا تقدر على الإمساك بالقلم بصورة صحيحة ٠ إنها لا تصلح للكتابة، ولا تقدر على كتابة إملاء،(وتدعي مع كل ذلك) بأنك كاتب ((مثلي))) ويجيب الفاضل قائلا (ماذا تقصد (بقولك) أنني لست كاتبا مثلك ؟ أنك حيثما تكتب وثيقة لا يفهم منها شيء ٠ وعندما تكتب رسالة ، لا يمكن قراءتها (؟)انك تذهب لتقسيم مقاطعة زراعية غير أنك تعجز عن تقسيم المقاطعة ، لأنك عندما تذهب لقياس الحقل لا تقدر الإمساك بحبل القياس ٠ أنك تعجز حتى عن الإمساك بمسمار بيدك ، فأنت لا عقل لك ، أنك لا تعرف كيف تحكم بين متخاصمين ، بل أنك تريد إشعال النزاع بين الأخوة٠ أنك واحد من أقل كتاب الألواح كفاءة ، فلأي ،لأي شيء أنت تصلح ، أيستطيع أحد القول؟

يوضح هذا الحوار التنافس العلمي بين الطلبة ، والتبجح في الأطناب في معرفة العلوم الأخرى أضافه إلى فن الكتابة المعرفة بالحساب والقياس (الرياضيات) والقضاء وفض النزاعات (العدل) أضافه إلى عرض استخدام مواد القياس (الحبل والمسمار) وأكد على التدرج في مراحل العلوم وعلى منح مناصب معينة للطلبة في مراحل متقدمة ، كما أن هناك ضمن حقوق الطلبة من يمثلهم ، ربما في كل مرحلة دراسية ، وهو الشخص الذي يمتاز بالأخلاق والعلم ، وهذا ما يفسر النص المسماري ((كيف تجرأ على القول) بأنك أنت ((قلب)) الهيئة الطلابية)) ٠

كان نظام العقوبة متبع في مدرسة بلاد الرافدين ، ضد الطلبة الذين لم يلتزمون بنظام أو قواعد المدرسة وكانت تختلف هذه العقوبة حسب الذنب الذي أرتكبه الطالب داخل المدرسة ، ويبدو من النص طبيعة العقوبة ((

(لم أنت) تلعن وتلقي بالإهانات على من هو ((أخوك الكبير)) ومن علمك فن الكتابة من أجل نفسك (؟) حتى ألـ(أوميا) أي (الأستاذ) العارف بكل شيء هز رأسه بشده (؟) (قائلا) : ((أفعل بي ما تشاء)) لو أنني (حقا) فعلت بك ما أشاء ـ نشخص تصرف كما تصرفت (و) كان مهما (؟) ل ((أخيه الكبير)) ـ لضربتك (أولا) بعصا غليظة ـ يا لها من عصا خشبية (إذ ما حان وقت الضرب) ـ (و) بعد أن أقيد قدميك بسلاسل نحاسية ، أحبسك في البيت ولا أسمح لك بالخروج من (البناية) المدرسة لمدة شهرين)) ٠

كانت أيام المدرسة طويلة وصعبة من حيث مناهجها وعقوباتها ، فلا عجب أذا كان بعض الطلبة يتهربون من المدرسة بسبب إهمالهم واجباتهم ، كما كان الأب يسعى إلى تعليم أبناءه وخاصة أصحاب الطبقة الوسطى وهذا ما يؤكده نص مسماري بعنوان ((كاتب وآبنه الضال)) ، إذ أن الكاتب كان شأنه شأن أي حرفي يحرص على تعليم أبناءه حرفته ٠

على الرغم من صعوبة المناهج المدرسية وقوانينها ، فان الطالب الطموح كان يوفق في التخرج من المدرسة ويضحى بفرصة العمل في القصر أو المعبد أو بإمكانه أن يصبح كاتبا إداريا أو محاسبا في أحدى المقاطعات الكبرى وهذا ما اكدت النصوص المسمارية المكتشفة بعنوان ((حوار بين أوجولا وكاتب) واستخدم أسلوب الدعاء للآلهة ، للشكر والتقدير ، على إيصال أبنائهم إلى مرحلة متقدمة من التعليم أو إيصالهم إلى مرتبة الكاتب ، وهذا ما يبدو في نص الدعاء من قبل الأب لأبنائه والأستاذ لطلبة ، وولاسيما المثابرين والطموحين، على التوفيق في عملهم ، اذ جاء النص بالصيغة الاتية ((أنت يا من حليت كتاب تستمع لكلماتي وأدخلت السرور إلى قلبي ــ ووضعت ((نيدابا)) ((إلهة المدرسة ألحامي)) في يدك شرف (كونك) ((أوميا)) ، أنت مكرس من قبل ((نيدابا)) عسى أن تعلو علو السماء ، وعسى أن تبارك بقلب مليء بالحبور ، ولا (تعاني) من ألم القلب ٠ عسى أن (تجيد (؟)) في كل شيء في ((أيدوبا) بيت المعرفة ، عسى (أن تعطيك (؟)) ((نيدابا)) العظمة السماوية (لا مثيل) لها (؟))

أما الهيئة التدريسية فكانت تتألف من مدير المدرسة المعروف باللغة السومرية ((أوميا UMMIA)) كما ويسمى (أبو المدرسة- adda-adubb)) ثم الأستاذ ((dub šar)) تأتي بمعنى(الناسخ أي الكاتب) ويختلف أسماء هذه الألقاب وفق المادة التي يتخصص في تدريسها فمثلا يسمى معلم اللغة السومرية ((dub Šar kiengira)) ، ومعلم الحساب ((dub šar nishid)) وهكذا ، كما وترد أشاره في النصوص المسمارية الخاصة بالمدرسة والتعليم على لقب الشخص يسمى ((she shgah)) ((الأخ الكبير)) وهذا هو تلميذ في مراحل متقدمة يساعد المبتدئين في تحضير واجباتهم المدرسية ، وتوكل إليه المهمة من قبل الكادر التدريسي .

أما طريقة الاختبارات (الامتحانات) التي يتأكد بها المدرس من أن الطالب قد تمكن من معرفة فن الكتابة أو مقدرته على تعلم ما كان يطلب منه طوال السنة الدراسية، فكانت هذه الطريقة لا شك في أن قدمها قدم المدرسة ، أذ اكدت النصوص المسمارية المكتشفة والتي تعود إلى (٩٠٠ق٠م) وباللغتين السومرية والبابلية عن هذه الطريقة (الامتحانات) ،اذ جاء النص٠

((خاطب الأستاذ أبنه (تلميذه) قائلا :

في مجلس الأساتذة ، أي في ساحة المدرسة تعال بابني وأجلس عند قدمي، لأني أريد أن أسألك وعليك أن تجيبني فأفتح أذنك لما سأقول لك ٠٠٠٠٠٠

فالمسمار بداية الكتابة، ولهذا المسمار ست ألفاظ مختلفة وهو يرمز إلى الرقم (٦) فهل تعرف أسماء المسمار ٠٠٠٠٠٠)) ٠

ويستمر الأستاذ في تقديم الأسئلة للتلميذ ، إذ يسأله عن فن اللغة السومرية ويقول له ((٠٠ هل عرفت ((أسرارها))؟ كما ويسأله ، هل تعرف الترجمة ، وتعرف الكلمات الأكدية عندما تكون في أعلى النص والكلمات السومرية في الأسفل وبالعكس، كما ويسأله عن نوع الخطوط ومدى معرفته بها والمرادفات في اللغتين السومرية والأكدية واللغات الخاصة بالكهنة والنصوص الكهنوتية ، والعمليات الحسابية ،)) كل هذه الأسئلة تؤكد على تنوع في تدريس العلوم الإنسانية والعلمية، بل وتؤكد أسئلة الأستاذ عن تعدد الخطوط الكتابية إذ كان هناك خط يميز كل مرحلة تاريخية وهذا ما اكده الملك الأشوري (آشور بين ابلو Ašur- ben- Aplu) ((تعلمت الكتابات القديمة وقرأت أحجار قبل الطوفان))٠ كما اكده سؤال الأستاذ عن الترجمة وكيفية معرفة الكلمات المترادفة ، اذ وردت أشاره في النصوص القديمة على تعلم أللغات الأجنبية فهذا الملك (شولجي) يتفاخر كونه يتكلم الآمورية والعيلامية مثل السومرية ٠ كما ويؤكد باستطاعته أن يصلح أخطاء المترجمين

كما ترد إشارة عن الترجمة في المعاجم اللغوية :(eme- bala) والتي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد٠

أما أيام المدرسة فهي طويلة وهذا ما يؤكده النص المسماري الذي يتضمن حوار بين (الأستاذ والتلميذ)

((٠٠٠ ماذا فعلت والى متى ستبقى هنا ؟
لقد أصبحت رجلا ناضجا وأصبحت في عمر متقدم ٠٠٠٠
أنك مثل ثور عجوز لا يستطيع تعلم المزيد ٠٠٠
أنت مثل حب يابس ، لقد أنقضى وقت الثمين ٠٠٠)) ٠

فهذا النص يؤكد على إن التلميذ كان يقضي وقتا طويلا كي يتعلم فن الكتابة والعلوم الأخرى ، كما ترد أشاره في نص مسماري مكتشف من مدينة أور يعود إلى الفترة السومرية ، إذ يلقي الأضواء على أن التلميذ يقضي(٢٤) يوما من الشهر في المدرسة ويتمتع بستة أيام عطلة ، وأطلق التلميذ على ثلاثة أيام منها (أيام الحرية) وعلى الثلاثة المتبقية أيام (أعياد المدرسة) والتي لا بعرف معناها بالضبط ، فقد جاء بالنص السومري على لسان التلميذ ٠

((أن حساب أيام أبقائي في المدرسة شهريا كالاتي :
أيام حريتي ثلاثة كل شهر ٠٠
أيام أعيادها (المدرسة) ثلاثة كل شهر ٠٠
وفيها (أمكث) أربعة وعشرون يوما من كل شهر ٠
(أنها أيام) حياتي في ((بيت الألواح)) أنها أيام طويلة حقا ! ٠

كما تبجح بعضهم وخاصة الملوك في المعرفة وخاصة معرفة فنون الكتابة والعلوم الإنسانية والعلمية فهذا الملك الأشوري أشور بنيبال يذكر في النص المسماري :

((استقيت المعرفة الخاصة بالكتبة وحذقت ٠٠٠
آيات السماء والأرض ٠٠٠٠٠ ودرست ظواهر السماء ،
وتمكنت من حل قضايا صعبة في المتعة والضرب ٠٠٠
وأتقنت فن الكتابة السومرية والكتابة الأكدية ٠٠٠٠
الصعبة جدا ، وكنت أحب أن أقرأ الأحجار المكتوبة
من أزمان ما قبل الطوفان ٠٠)) ٠

كل النصوص المسمارية المكتشفة أشارت إلى أهمية العلم ودور التعليم في تقدم المعرفة وتطور العلوم الأخرى ، ولكن في نفس الوقت ترد أشاره في النصوص المسمارية وعلى لسان رجل أشوري ((أن بيت كبير الكتاب حقيرا حتى أن الحمار لا يرضى أن يدخله))

ربما يعكس لنا هذا النص مدى تذمر بعض الناس من كبار الموظفين ، بسب سوء معاملتهم او فسادهم ، كما ترد إشارة إلى تذمر كبار الموظفين ايضاً ، ربما للضغوط التي يتعرضون لها من كبار المسؤولين في السلطة ، وبالتالي انعكست هذه الأوضاع على التذمر والاستياء من العلم والمعرفة ٠